خطبة صلاة الجمعة 25/ 3/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الشفقة على الخلق عند النبي ﷺ وكيف نتحلى بها)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

هذه الخطبة الخامسة والعشرون في سلسلة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي ﷺ، وكيف نتحلّى بها).

وعنوان خطبة اليوم:

الشفقة على الخلق عند النبي ﷺ وكيف نتحلى بها

أيها الإخوة:

الشفقة في اللغة: رِقَّة في الشّيء، وأشفقتُ عليه إذا خفت عليه أن يناله مكروه.

والشفقة في الاصطلاح: عنايةٌ مختلطةٌ بخوف؛ لأنَّ المشفِقَ يحبُّ المشفَق عليه فيعتني به ويخاف ما يلحقه من أذى.

ومنه شفقةُ الوالدِ على ولده، والطبيبِ على مريضه، والزوجةِ على زوجها، والأخِ على أخته، والإمامِ على رعيته وغيرُها.

والشفقة كمالٌ في الخُلُق تجعل المرء يأسى على الضعفاء، ويخاف على مصالحهم، ويغار عليهم ولهم.

وإذا كان حديث اليوم عن الشفقة على الخلق عند النبي ﷺ وكيف نتحلى بها، فإليكم هذه المواقف من السنة المطهرة..

1-أخرج البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنِّي أقوم إِلَى الصَّلَاة وَأَنا أُرِيد أَن أطول فِيهَا، فَأَسْمع بكاء الصَّبِي، فأتجوز فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَة أَن أشق على أمه**» قال الشرّاح: (هَذَا الحَدِيث يدل على شفقته ﷺ ولطفه بأمته، وَقد نبه بِهَذَا على أَن الأولى بالأئمة التَّخْفِيف، وَأَنه لَا يكَاد يَخْلُو بعض المأمونين من أَمر يشغل قلبه).

2-عقد الإمام مسلم في صحيحه باباً كاملاً يتحدث فيه عن شَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، ومما أخرج فيه حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ**».

قال أبو منصور الماتريدي في تفسيره: (وقد كان عليه الصلاة والسلام مُشفِقاً بأمته رحيماً، حتى بلغت شفقته ورحمته وحُزنه على كفار قومه مبلغاً كادت نفسه تهلك فيها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾، فالرُّسل عليهم السلام كانوا إذا أُوذُوا لم يكونوا يحزنون لمكان أنفسهم بما أُوذوا، بل كانوا يحزنون لمكان مَنْ يُؤذيهم خوفاً من أن يحلَّ بهم الهلاك والبوار بإيذائهم رسل الله تعالى).

3- أخرج البخاري ومسلم أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سُليم: «قد سَمِعْتُ صوتَ رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرِفُ فيه الجوع، فهل عندكِ من شيء؟ فقالت: نعم، فأخرجَتْ أقراصاً من شعير، ثم أخَذَتْ خِمَاراً لها، فلفَّتِ الخبز ببعضه، ثم دسّتْهُ تحت ثوبي، ثم أرسلَتْني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبتُ به، فوجدت رسول الله ﷺ جالساً في المسجد، ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: أرسلكَ أبو طلحة؟ قلت: نعم، قال: أَلِطَعَام؟ قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا، فانطلقوا، (أي أشفق عليهم لأنه أصابهم ما أصابه من الجوع فدعاهم لما دعي له من الطعام) وانطلقتُ

بين أيديهم، حتى جئتُ أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سُليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نُطْعِمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: هَلُمِّي ما عِندَكِ يا أم سليم، فأتت بذلك الخبز، فأمرَ به رسول الله ﷺ فَفُتّ، وعَصَرَتْ عليه أم سليم عُكَّةً لها، فآدَمَته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذِن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلاً – أو ثمانون، ثم أكل رسول الله ﷺ، وأبو طلحة، وأمُّ سُليم، وأنس، وفَضَلَتْ فَضْلةٌ فأَهدَوْا منها لجيراننا» .

فهذه صورة من صور شفقته على الضعفاء والفقراء من أمته ﷺ.

والحاصل أن الشفقة على الخلق خُلُقُ النبي ﷺ، وهو معروف به، والمتوقع أن يكون خلقَك، وأن تكون معروفاً بذلك.

– تزوجا فطلبَت طلاقاً بعد ثمانية عشر شهراً؛ لأنها وجدت نفسها في بيت أبيها أكثر راحة منها في بيت زوجها، وآزرها أبوها وأمها في طلبها، ولأنه أَلِفها وأوى إليها ولأنها حامل، حاول زوجُها كفَّها عن مرادها فلم تَكُف.

وقع الطلاق والحمل في شهره السادس، فلما وضعت اتصل أبوها به من المشفى ليعلمه أن الوليد موجود في غرفة المواليد، وبإمكانه مراجعةُ المشفى لأخذه، أسرع الخُطَا ليجد الطفل عند الممرضة فاستلمه مدهوشاً سائلاً: ألا تريد أمُّه أن تراه؟ فقالوا له: لا، ألا تريد أن تضعه على صدرها في ساعاته الأولى؟ فقالوا: لا، خرج به من المشفى لا يدري ماذا يفعل؟ أوصله إلى أمه العجوز التي اعتنت به وربَّته.

وإن تعجبوا فاعجبوا من مرور أكثرَ من عشر سنوات على هذه الحادثة، ومن ذلك اليوم لم تتصل تلك المرأة التي نقول عنها أم، لتسأل عن روح انفصلت منها هل هي بخير أو ليست كذلك؟!

الشفقة رعاية ممزوجة بخوف، ولا تُنزَعُ الشفقة إلا من شقي.

– روى عبد الله بن أحمد في الفضائل بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم إذا نار، فقال يا أسلم إني لأرى ها هنا ركباً قَصَرَ بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان صغار، وقِدرٌ منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار، فقالت: وعليك السلام، فقال: أأدنو؟ فقالت: ادنُ بخير أو دع، فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قَصُر بنا الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع..! قال: فأي شيء في هذه القِدر؟ قالت:

ما أسكتهم به حتى يناموا، واللهُ بيننا وبين عمر! فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى عمر أمرنا ثم يغفُل عنا. قال: فأقبل عليَّ، فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدَّقيق فأخرج عِدلاً من دقيق وكبةً من شحم فقال: احمله عليَّ. فقلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك. فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذرّي عليَّ وأنا أحرك لك، وجعل ينفخ تحت القِدر، ثم أنزلها فقال: أبغيني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها: أطعميهم، فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك. وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين. ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها فربض مربضاً، فقلت له: إن لنا شأناً غير هذا، ولا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدأوا، فقال: يا أسلم، إنَّ الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

إنها الشفقة رعاية مختلطة بخوف، ولا تنزع الشفقة إلا من شقي.

– مات زوجٌ وترك زوجة وصبيين، فإذا بأم الزوج المتوفى وإخوانِه يُنْذِرون الكنَّة بأنها يجب أن تخلي لهم البيت بعد انتهاء أيام العدَّة مباشرة مع أن الكنَّة لا أهل لها في هذه البلدة تأوي إليهم، ولا دار لها غيرَ هذه الدار، والحماةُ والأحماءُ في وفرة من المال وسعة.

إنها الشفقة رعاية مختلطة بخوف، ولا تنزع الشفقة إلا من شقي.

– اتصلت بي أم لتخبرني أن ابنها ذا الخامسة والعشرين عاماً منذ أن نزل بالبلد ما نزل يسعى جاهداً لعون الناس استطاعته، متألماً لحالهم مشفقاً عليهم، ولم ينم على سريره الوثير منذ ذلك الحين ولكنه ينام في شرفة المنزل على فراش وغطاء بسيطين، يستحيي من الله أن يراه في راحة وبحبوحة وفي الناس ما فيهم من آلام وحاجة.

إنها الشفقة رعاية مختلطة بخوف، ولا تنزع الشفقة إلا من شقي.

– ترك ثلاثةُ إخوة ذكور وثلاثُ إناث أمَّهم ترعاها دار رعاية المسنين، واختصموا فوق ذلك فيمن سيدفع أجرة الإقامة في الدار، أيدفعون بالتساوي أم بحسب نصيبهم من الإرث!

إنها الشفقة رعاية مختلطة بخوف، ولا تنزع الشفقة إلا من شقي.

أيها الإخوة:

إنَّ إشفاقَ بعضنا على بعض، إشفاقَ الزوج على زوجه، والوالدِ على ولده، والجارِ على جاره، والصديقِ على صديقه، والرحمِ على رحمه، والأخِ على أخيه... خلقٌ نبيلٌ به نستمطر فرج الله تعالى، وبه نستفتح أبواب السماء، وبه نفلح وننجح.

وإنَّ قسوة القلب، وشُحَّ النفس والأثرة، واتباع الهوى، خلقٌ ذميمٌ يهوي بالفرد والمجتمع إلى مجتمع الغاب بل إلى أدنى.

أيها الأخ الكريم:

يعينك على التحلي بالشفقة على الخلق ثلاثة: الذكر والحب والصحبة.

أما الذكر فإنَّ مَنْ أَكثَر من ذكر الله رقَّ قلبُه وسَمَت نفسه وأحبَّ الخالق، ومن امتلأ قلبه من حبِّ الله فاضَ الحب من قلبه إلى خلق الله، فسعى أن يوصل الخير إليهم ويبعد الشر عنهم، حباً لهم وشفقةً عليهم. وأول الإشفاق للأقربين ثم الأمثل فالأمثل.

وأما الحب فإنه من أخذ حباً أعطى حباً، فالإناء ينضح بما فيه، فمهما استطعتم أن تُغدقوا على أبنائكم حباً ورحمة وحناناً فافعلوا، لأن من تلقَّى حباً فسيعطي حباً، ومن أخذ شفقة وحناناً فسيعطي شفقة وحناناً.

وأما الصحبة فالمراد مصاحبة أهل الشفقة والرحمة، لأنَّ مَنْ جالس جانس، وعدوى الروح إلى الروح أسرع من عدوى الجسد إلى الجسد.

فمن صحبت الأمهات الشفوقات، والأخوات الرحيمات، والمدرسات المحبات؛ فسيعلمْنَها بحالهن لا بمقالهن الشفقة والرحمة والمحبة.

ومن جالست الزوجات الناشزات، والأمهات الغاضبات، والصديقات العاقَّات، فسينزعن منها – بلا ريب– الشفقة والرحمة والمحبة.

وقل مثل ذلك للرجال. فصحبة أهل الشفقة تورث الشفقة وعكسه بعكسه.

إذاً هي ثلاثة: الذكر والحب والصحبة، تقوي في نفسك الشفقة على خلق الله فتزيدك قرباً لله.

أيها الإخوة:

أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ فإنه من صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه ﷺ وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾

والحمد لله رب العالمين